التغافل شِيمة الأفاضل

إن الله ـ جل في علاه ـ خلق الإنسان، مدنيّاً بالطبع؛ يؤثر الاجتماع على العزلة، فلم يوجدْه في جوف مغارة، ولا في زاوية صومعة، ولا على رأس جبل؛ بل أوجده مخالطاً بني جنسه؛ وإن من لازم هذه المخالطة أن يقع الجهل من الناس بعضهم على بعض.

وإنه ليحسن بالعاقل أن يكون ذا أناة، فلا يعجلْ بالمحاسبة على كل خطأ في حقه؛ فإنه إذا عاتب على كل هفوة، وحاسب على كل جفوة، أوشك أن يعيش وحيداً، كما قال كثيِّر عَزَّة:

ومن يتتبَّع جاهداً كلَّ عثرةٍ   يجدْها ولا يَسلمْ له الدَّهرَ صَاحبُ(١)

بل عليه أن يسلك مسلك التغافل، فهو السبيل لعلاج كثير من المشاكل، وإن من شيم النفوس الطاهرات التغافلَ عن الزلات؛ إبقاء على الود، وحفظاً للعلاقات.

ولقد كان نبينا ﷺ يتمثل هذا الأمر على أحسن وجوهه؛ ففي قصة زوجتيه اللتين تظاهرتا عليه يقول الله ـ تعالى ـ:

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢١).

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ [التحريم: ٣]؛ أي: لم يعاتبها في الحديث كله، إنما عاتبها في بعضه، ولم يسرُد لها الأخطاء كلها تكرماً[١].

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفاً قط، ولا قال لي لشيءٍ: لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا»[٢].

والتغافل هو مسلك الأكابر والأفاضل؛ فهم لا يستقصون، ولا يحصون؛ بل يتغاضون، ويعرضون، يقول الحسن البصري: «ما استقصى كريم قط»[٣]، والناس لا يحبون الذي ينقر أخطاءهم تنقيراً، ولا يزال يذكرهم بها تذكيراً.

وليس من التربية في شيء أن يحاسب الأب زوجته وأولاده على كلِّ زلَّة، وليس نجاحاً أن يحصي المدير خطأ موظفيه كلَّه، وليس تميزاً أن يَعُدَّ المعلم أخطاء تلاميذه عدّاً، وليس صديقاً من يَرصُد أخطاء أصحابه رصداً.

وإن مما يعين على العمل بالتغافل تذكيرَ النفس بأن الكمال عزيز، ولن تجد أحداً إلا وفيه صفاء وكدر، فلا ترج شيئاً خالصاً نفعه، فانهل من صفو صاحبك، وتعامَ عن كدره، لسان حالك:

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ١٨٧)، والبرهان، للزركشي (١/ ٣١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ١٨٧).

إذا أَدْمَتْ قَوارِصُكُمْ فؤادي   صبرْتُ عَلى أذاكم وانطويْتُ
وجئتُ إليكمُ طَلقَ المُحيَّا   كأني ما سَمِعْتُ ولا رَأيتُ[(١)]

وما أجمل قول أبي تمام حين قال:

ليس الغبيُّ بِسيدٍ في قَومه   لكنَّ سيدَ قومِهِ المُتَغَابِي[(٢)]

وأجاد دِعْبل حين قال:

تخال أحياناً به غفلةً   من كرم النفس وما أعلمه[(٣)]!

ويقول عثمان بن زائدة، قلت للإمام أحمد: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في التغافل، فقال: «العافيةُ عشرة أجزاءٍ كلها في التَّغافُل»[(٤)]؛ ولذا فقد نجح هذا الإمام في علاقته مع أهله، فمرة ذكر زوجته المتوفاة، فترحم عليها وقال: «مكثنا عشرين سنة، ما اختلفنا في كلمة»[(٥)].

ويتأكد التغافل مع من له حق عليك كالوالدين ونحوهم، فإذا سمعت منهم ما تكره فلا تستعجل بالرد والخصومة؛ بل الزم التغافل والتغاضي، واقتد بيوسف عليه السلام لما اتهمه إخوته بالسرقة لم يزد على أن قال في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ [يوسف: ٧٧] فكسبهم، وفاز بالظفر.

---

(١) بلا نسبة في الدر الفريد (٢/ ٢٧٥).
(٢) ديوان أبي تمام (ص١٥٤).
(٣) ديوان دعبل (ص٢٧٣).
(٤) الآداب الشرعية (٢/ ١٧).
(٥) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٣٢).

كما يتأكد التغافل مع أولئك القوم الذين يقعون فيك دون سبب إلا الحسدَ والبغضاء، فلا تقابلهم بجهلهم؛ بل اعمل معهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كان هدي نبينا ﷺ، فقد كان يسمع كلماتٍ خشنةً تنبو عنها الأسماع، وتنفر منها الطباع، فلم يكن يقابل قائلها بمثلها، يقول أنس رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: «**لو أتيت عبد الله بن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك**»(١).

ما أعظم حِلم نبينا، وما أزكى نفسه، وما أكرم خلقه، يخاطبه رأس المنافقين بهذا الطيش، فيثبت ﷺ، لم يستخفَّه سفهه، ولم يستثرْه منطقه؛ بل أعرض عنه، ولم يجبه.

إذن فلا تستعجل بالرد على من جرحك أو لمزك؛ بل اسكت؛ فسكوتك يحزنه، وإعراضك يقتله كما قال الإمام الشافعي:

إذا نطقَ السَّفيه فلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ من إجابَتِهِ السُّكوتُ
فإن كلَّمتهُ فرَّجتَ عنهُ ... وإن خلَّيتَهُ كمداً يموتُ(٢)

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩).
(٢) ديوان الشافعي (ص٣٨).

وإنه ليتعين التغافل عن الخطأ الذي لم يقصدْه صاحبه؛ فإن هذا هو عين الحكمة والمصلحة.

ومن مستحسن ما يذكر هنا ما جاء عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه دخل مرة المسجدَ في ليلةٍ مُظلمة، فمرَّ برجل نائم فعَثَر به، فرفع الرجلُ رأسَه وقال: أمجنونٌ أنت؟ ـ وما علم أنَّه أمير المؤمنين ـ، فقال عمر: لا، فهمَّ به الحرس، فقال عمر: مَهْ، إنَّما سألني أمجنون؟ فقلت: لا»[(١)].

فهذا من التغافل الذي يعد في أعلى درجات المكارم، ولو أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ دقَّق وفتَّش مع هذا القائل لعظم الخصام، وطال المقام، ولكنه أعرض فانتهى الموقف بسلام.

وزبدة القول أن من لزم التغافل مع الناس عاش سالماً، والقول فيه جميل، ومن تتبع الأخطاء، صار مع الناس في بلاء، ومع نفسه في شقاء.

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٣١٠).